الإمامة الشّرعيّة والبعد الاستشرافيّ -نحو ملامح استشرافيّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام-

الدكتور عبد الفضيل الدراوي[1]

خلاصة:

تروم هذه الدراسة الكشفَ عن الأبعاد الاستشرافيّة البانية في المنظومة الفكريّة العقديّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ بوصفها تتضمّن جملة من المبادئ والمرتكزات التي يمكن استثمارها لتشكيل رؤية استشرافيّة لمستقبل البشريّة جمعاء. هذه الرؤية أساسها الإمامة الشرعيّة؛ بما هي خطّة وَحْيانيّة تمثّل الأساس العامّ والمرتكز الأوّل والركن الركين لكلّ تخطيط مستقبليّ، وتتميّز عن غيرها من العمليّات الاستشرافيّة؛ بارتكازها إلى العقيدة؛ بوصفها أسّ كلّ حركة ومنطلقها، وبكونها تتغيّا إيجاد البيئة المعنويّة الصالحة التي يتكامل فيها الفرد الممكن التعويل عليه لبناء المجتمع والأمّة الصالحة.

وتحوز فكرة الإمامة أبعادها الاستشرافيّة من جانب حسمها مسألة الولاية في الحياة العامّة والخاصّة؛ بجعلها ذات مرجعيّة عقديّة، بحيث فصّل فيها الوحي بشكل توقيفيّ، وحدّد الأئمّة الشرعيّين وعيّنهم ووصّى لهم وبهم، وجعلهم أساس التعبّد وعنوان التسليم والانقياد للمعبود، وبيّن مدى قداستهم، وحتميّة الامتثال لهم؛ قاطعًا بذلك الطريق على كلّ محاولات العبث والاستغلال البشريّة، تنبّؤًا بمخاطر ذلك على

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

البشريّة، التي عانت وما زالت تعاني الويلات بتفريطها في هذه المسألة!

كما تمتاز المنظومة الفكريّة العقدية الإماميّة بمحوريّة فلسفة الانتظار، وما يتضمّنه ذلك من طاقة ترشيديّة توجيهيّة إيجابيّة، من خلال ربط المسيرة البشريّة -والوجوديّة عمومًا- بانتظار الفرج الموعود، عبر تأصيل الاعتقاد بقرب ظهور الإمام المصلح والمنقذ، وبضرورة التوطئة والاستعداد الفرديّ والجماعيّ الآنيّ والمخلّص؛ لملاقاة الموعود والانخراط في صفّه، لتحقيق الهدفيّة من الوجود، والسير به نحو الكمال المطلوب.

مصطلحات مفتاحيّة:

الإمامة، الوحي، الاستشراف، الوجود، المستقبل، الإنسان، البشريّة، التكامل، الانتظار، الظهور، القيادة.

مقدّمة:

تتوخّى هذه المقالة الدفاع عن فرضيّة أساس ثنائيّة الأقطاب؛ يقوم قطبها الأوّل على القول بحتمية الاستناد إلى فكر أئمّة أهل البيت عليهم السلام في أيّ حركة أو عمليّة استشرافيّة تعلن عن نفسها؛ بوصفها إسلاميّة المنطلقات والأهداف، وتحاول البحث في سبل تكوين رؤية مستقبليّة تتغيّا إيجاد مخارج للأزمات متعدّدة الأوجه التي تكابدها المجتمعات المعاصرة، وتغرق البشريّة في لجج بحرها المخيف، وتصارع أمواجها العاتية، وتطمح نحو تحقيق حالة إصلاحيّة آنيّة ومستقبليّة يُرجى معها الوصول إلى نهضة حقيقيّة وشاملة تكون قادرة على أن تُخرِج المجتمعات الإنسانيّة من شرنقة التخلّف والضياع، وتنتشلها من حال التبعيّة والاستعباد التي تعيش فيها جلّها. وبخاصّة أنّ النظام الإسلاميّ -بما هو نظام ربّانيّ وشريعة خالدة ورسالة خاتمة ومهيمنة على غيرها- ما كان ليتنكّر لحاجات الإنسان ولمطالبه الخاصّة والعامّة؛ بل إنّه جعل الإنسان في صلب اهتماماته، وجعل تطوّره ورقيّه غايته ووسيلته. وهو

قد وضع لذلك مبادئ ومنطلقات كبرى في شكل مخطّطات واعية تضمن صلاح شأن هذا الإنسان في المجتمع ما دام حيًّا يتحرّك؛ سواء بوصفه فردًا ذا استقلاليّة مفترضة وهويّة مفردة قائمة بذاتها، أم بما هو مجتمع متكامل مركّب من أفراد وجماعات، وحتّى من حيث كونه أمّة مكوّنة من مجتمعات ودول.

وقد تجلّت هذه العناية الإلهيّة في اختياره -تعالى- النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام؛ وذلك بالنظر إلى فكر أهل البيت عليهم السلام، الذي يمتلك من المقوّمات الذاتيّة والموضوعيّة ما يجعله منطلقًا لنهوض الأمّة الإسلاميّة، ومعيارًا لتنقية صورة الإسلام من مظاهر الانحراف والتبديل التي تنشط كلّ قوى الشرّ جاهدة من أجل أن تلحقها به، وبالنظر إلى المركزيّة القياديّة المعطاة للأئمّة من أهل البيت عليهم السلام في مسيرة المجتمعات البشريّة في الحياة الدنيا، وإلى حجم التوصيات الغيبيّة والتوجيهات النصّيّة الصادرة عن الوحي قطعيّ الثبوت؛ قرآنًا وسنّةً معصومة.

وأمّا القطب الثاني من الفرضيّة، فيرى -تبعًا لذلك وارتباطًا به وتتمّة له- أنْ لا نتائج مطَمْئِنة، ولا احتمال ممكن لنجاح أيّ خطّة أو استراتيجيّة استشرافيّة ما لم تتأسّس على مشروع أخلاقيّ روحانيّ تكامليّ يراعي في الإنسان جانبه الروحيّ ويتغيّا تنمية الجانب المعنويّ في الإنسان، والاعتراف به كائنًا وجوديًّا خاصًّا، وفق ضوابط وقوانين أساسها الأخلاق والالتزام والتناغم مع الفلسفة العامّة التي يسعى إلى إقامتها.

إنّ الشأن المستقبليّ في المنظومة الإسلاميّة لا ينفصل عن الشأن الأخلاقيّ؛ بقدر ما يتأسّس على معطياته ويتَقَوّم بتوجيهات وضوابط تخليقيّة تجعل كلّ حركة أو عمل مادّيّ وكلّ شكل من أشكال الضرب في الأرض مآله الإيمان وغاياته تحقيق التكامل المعنويّ. وعليه، فكلّ نظام أو تخطيط استشرافيّ لا يأخذ بالاعتبار الشأن الأخلاقيّ يكون مآله حتمًا الفشل الذريع، ولا يمكنه بأيّ حال أن يجنيَ نتائج ذاتَ بال.

أولًا: نحو استشراف معنويّ تكامليّ:

1. فشل الحلول المستوردة:

إنّ الوعي العالميّ في كلّ وقت وحين -وبشكل ملحّ في هذا الزمن المعاصر- مدعوّ إلى رؤية استشرافيّة تتجاوز مجرّد الوقوف عند حدود الهويّة المادّيّة الجسمانيّة المحضة والمحدودة للإنسان، وتتخطّاها إلى هويّة أكثر تعقيدًا وأبعد عمقًا وتركيبًا، تكون الروح فيها محورًا وأساسًا، في ظلّ واقع عالميّ وحضاريّ معقّد ومتداخل الجوانب والمصالح والأهداف، وفي ظلّ تنافسيّة عالميّة وأمميّة حادّة غدت تستوجب أن يمتلك الإنسان -فردًا وأسرةً ومؤسّسةً ودولةً- رؤيةً مستقبليّةً واضحة ودقيقة، تمكّن من رسم مخطّطات واستراتيجيّات واضحة المعالم ومعلومة النتائج في سبيل بناء المجتمع وتكوين الأفراد الصالحين، الذين يمكن التعويل عليهم في صنع مستقبل الأمّة وبناء حضارة إنسانيّة بالشكل المطلوب. وبخاصّة إذا تأمّلنا الواقع الإنسانيّ العالميّ في هذا الزمن المعاصر، الذي يُكثر ادّعاءاته وإعلاناته عن وضع الخطط العلميّة والتقنيّة المحسوبة والدقيقة، وعن صرفه ميزانيّات كبرى لتأمين الحياة الكريمة للإنسانيّة، ولكنّه -حقيقة- لا يزداد إلا تعميقًا لما يعرفه الجميع ويلحظه من سيادة لمنطق القوّة والبطش، ومحاصرة البشريّة وغزو الحياة بمظاهر المادّيّة والعبثيّة وعبادة الذات والتنكّر لجميع القيم والمبادئ، حتّى إنّ البشريّة تنكّرت فيه للأجيال القادمة، وانساقت مع منطق عبادة الذات والبحث عن الرفاهيّة المادّيّة الشخصيّة، وهيمنة الأجواء المنحرفة الموغلة في الملذّات والانسياق مع حياة الترف، التي أضحت بمنزلة سياسة عامّة مخطّطٍ لها من لدن قوى الاستكبار العالميّ وشياطين المادّيّة المتوحّشة، فجعلت المناخ العامّ مناخ فراغٍ روحيّ ولهوٍ وعبثٍ وغفلةٍ وتردٍّ واختلاط وميوعة شاملة في العلاقات والفكر والثقافة والأخـلاق، فانساق السواد الأعظم من البشريّة -بمن فيهم كثير من العلماء والمثقّفين والمنظّرين الاجتماعيّين والسياسيّين

والأكاديميّين مع الملذّات والمغريات- وبدا التيّار السياسيّ الاجتماعيّ يجرف الجميع في هبوطه وانحداره المهلكِ، حتّى انشغل الجميع بالمنحطّ والتافه من الأمور، وأقاموا على الذميم من الفعال، ليتهدّد كيان الأمم في وجودها، وتمسّ المجتمعات والدول في صول المعلومة والتفنّن الإعلاميّ الإشهاريّ في توصيلها وقدرته على غرسها في الجماهير، من دون مراعاة لفطرته ولا اعتبار لقيمة الآخر أو الإحساس به أو مراعاة لحاجاته. لذلك تولّدت أزمات لا حدود لها ولا حصر؛ «أزمة مناخيّة وبيئيّة، أزمات ماليّة، اقتصاديّة واجتماعيّة، أزمة فقر مزمنة، أزمة فلاحة، أزمة طاقويّة»[1]؛ ما أصبح يشكّل تهديدًا كبيرًا وحقيقيًّا للإنسان نفسه، ويجعل السلام والأمن الخاصّ والعامّ في مهبّ الريح.

هذا الواقع السوداويّ المخيف أضحى يفرض بإلحاح -قد يكون غير مسبوق- ضرورة البحث عن بديل آخر، واقتراح مشاريع مستقبليّة، قريبة ومتوسّطة وبعيدة المدى، تعترف للإنسان بإنسانيّته، وتعيد إليه توازنه المفقود، وتُرجع إليه حقوقَه الطبيعيّة والفطريّة التي سرقت منه بشكل مدروس ودقيق.

وتزداد حاجة المجتمعات المعاصرة إلى ضرورة تلمّس حلول أخرى ومقاربات جديدة للمسألة الاستشرافيّة في عالمنا الراهن، بعد أن أثبتت جميع الحلول المستوردة فشلها، وأبانت جميع المدارس والمذاهب الفكريّة الإصلاحيّة الحديثة، التي لم تتّخذ من الإسلام الأصيل مرجعًا لها، عن عجزها في تخليص هذه المجتمعات من أزماتها المتجذّرة؛ سواء أكانت هذه الحلول آتية من الشرق الاشتراكيّ الشيوعيّ، أم كانت مُستَقدَمة من الغرب الرأسماليّ العلمانيّ.

لقد بقيت المجتمعات الحديثة إلى وقت قريب تتوهّم تحقيق الرّفاه المادّيّ، وتنشد تحصيل السعادة الإنسانيّة، من خلال تصديقها نداءات

(1) غوديبه، ميشال؛ وآخرون: الاستشراف الاستراتيجيّ للمؤسّسات والأقاليم، ترجمة: محمد سليم قلالة؛ قيس الهمامي، منشورات دونود (اليونسكو)، ص7.

جيل من المفكّرين وزاعمي الإصلاح، من الذين ادّعوا العلميّة والتخصّصية، ومضوا في التأصيل لسبل تأمين الحاجات المادّيّة للإنسان، واكتفوا بالمعالجة الجزئيّة لمطالب الفرد؛ مع غضّ النظر عن ارتباطها الوثيق بالجوانب الأخرى. لقد كان مبدأ تحرير الإنسان -ومعه تحرير السوق أو الاقتصاد- أحد أبرز مقوّمات تلكم الدعوات؛ الأمر الذي أفضى إلى وجود هوة سحيقة تفصل بين الطبقات الميسورة التي امتلكت رؤوس الأموال وتجمّعت في يدها الثروة بجميع أنواعها، وبين طبقات البسطاء من الناس. هذه الحالة جسّدت عدم تكافؤ وحالة من التفاوت، عبر تراكم مصادر المال ووسائل التمكّن منه، وتمركزها في يد مجموعة قليلة تستفيد منه كيفما شاءت، وتوظّفه في الاستفادة من مزايا الحياة بكلّ حرّيّة؛ وعلى مرأى من المحرومين. وكان من الطبيعي أن يقود ذلك إلى قلاقل اجتماعيّة، ينعدم فيها الاستقرار، وتهتزّ فيها شبكة العلاقات بين أفراد المجتمع أو بين طبقاته. فهي حالة «تولِّد عقدًا في النفوس، وتبعث على ملء الصدور بالشحناء والغضب والعداوة؛ حيث تكون مستعدّة للاستجابة لأيّ نغم يعزف على مسامعها، حتى وإنْ كان كاذبًا؛ إذ المهمّ لدى هذه الطبقة المحرومة أن تجد من يتحدّث بحقوقها المهضومة، فتنهض معه على أمل أن تجد البلسم الشافي لجراحها، وما يفتح الطريق لعلاج مشكلاتها»[1].

2. التكامل المعنويّ أساس الاستشراف:

لقد نصّ الميثاق التأسيسيّ لليونيسكو في ديباجته الأولى على قضيّة قد تُعدّ بسيطة أو بديهيّة، لكنّها في حقيقة الأمر تبدو خلاصة فلسفات وسياسات وتجارب متراكمة، وتستدعي كثيرًا من التأمّل والاعتبار. وممّا جاء في الديباجة: «لمّا كانت الحروب تتولّد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام»[2]. وغير خاف ما في هذا الإعلان من اعتراف

(1) الطباطبائيّ، محمد حسين: مقالات تأسيسيّة في الفكر الإسلاميّ، ترجمة: جواد علي كسار، ط2، مؤسّسة أم القرى، 1418هـ ق، ص407.
(2) غودييه؛ وآخرون، الاستشراف الاستراتيجيّ للمؤسّسات والأقاليم، م. س، ص7.

صريح بأهمّيّة الجانب المعنويّ من الإنسان في أيّ عمليّة استشرافيّة يُراد منها البحث عن المستقبل الآمن للبشريّة. وفي هذا دليل على ريادة مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مجال الاستشراف المستقبليّ؛ بالنظر إلى محوريّة القيمة الإنسانيّة في هذه المنظومة، وبالنظر إلى اعتبار إيجاد الإنسان الحقيقيّ والكامل فيها. لقد عُدّ الإنسان الصالح؛ حقيقة وجوهرًا هو القطب والأساس والركن الركين، الذي لا يمكن بناء مجتمع ولا اقتراح برنامج، مهما تكن قيمته العلميّة، ومهما تكن درجة الدقّة والضبط العلميّ فيه، ومهما تكن نتائجه محسوبة؛ إلا إذا أُخذ فيه هذا الجانب المشرق من الإنسان بعين الاعتبار؛ بل أُعطي لهذا الجانب الأولويّة والمنطلق.

وذلك ما نجده توصيات الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته وأوصيائه عليهم السلام جميعًا، في السنّة الشريفة، وفي بياناتهم وبلاغاتهم، وفي سلوكيّاتهم العمليّة، وفي مختلف مراحل حياتهم الشريفة؛ سواء أكانوا حاكمين أم محكومين، وسواء أكان ذلك في العلن وعلى رؤوس الأشهاد، أم في خلواتهم، فهم في ذلك كلّه يضعون غاية بناء الإنسان الصالح في صلب اهتماماتهم، ويخطّطون لكيفيّة إبقاء الإنسان على إنسانيّته، من خلال بناء روحه وتنمية معنوياته التي هي «سرّ بقاء الإنسان وخلود الإنسانيّة؛ عندما يواجهان خطر الفناء»[1].

فتكون من الحاجات الملحَّة -والحال هذه- الحاجة إلى خطاب استشرافيّ إصلاحيّ ذي جوهر روحانيّ معنويّ، يبرمج مخطّطاته الاستشرافيّة البعيدة والمتوسّطة والقريبة المدى، ويجعل من أولويّاته ابتغاء تحصيل أنموذج اجتماعيّ يركّز على تلطيف روح الإنسان، واستعادة العواطف النبيلة المفقودة، ويروم تعهّد الإنسانيّة والارتقاء بها نحو تكاملها المعنويّ، عبر تغذيتها بتفاصيل النبل والقيم الأصيلة؛ بما يضمن صياغة الروح صياغة معنويّة، وصياغة إيمانيّة تحصّن البشريّة من الضياع في حيرة مدلهمّات الفتن، وترشدها إلى طريق النجاة وسبيل الفلاحَيْن المادّيّ والمعنويّ،

(1) شريعتي، علي: الدعاء، ترجمة: سعيد علي، ط1، بيروت، دار الأمير، 2006م، ص44.

لتسير على صراط الله المستقيم الذي ارتضاه الخالق لمخلوقيه، ودلّهم عليه بلطفه ورحمته بالفطرة الصافية والعقل السليم، وأرسل من يظهر حقيقته ويحفظ منهجه، حتى تؤمن البشريّة بالمحبّة وباللطف والرقّة، وتتخلّى عن الأنانيّة المفرطة، ويكون الإنسان فيها ملتفتًا إلى إنسانيّته، لا متخلّيًا عنها وهاربًا منها، إنْ لم نقل محاربًا إيّاها.

هذا بخاصة أنّنا نعيش في عصر -سواء أَأَحْبَبنا ذلك أم كرهنا- اخشوشن فيه كلّ شيء، وبسطت فيه المادّيّة القاسية (المتوحّشة) سلطانها على الناس وعلى الحضارة والعلم والصناعة، بل على الفكر والفلسفة والأخلاق والفنون والآداب، وأصبح الإنسان يساق سوقًا نحو عبادة الذات والخضوع لوحشيّة أخيه الإنسان ولصور النفعيّة الضيّقة، وغدَت فئات عريضة من الناس ترزح تحت وطأة قيم النفاق والظلم والفجائع والحروب وخمود العاطفة. ومن ثمّة لا يمكن نشدان إصلاح هذا الإنسان وتكوين شخصيّته والارتقاء به إلى مرتبات الكائن الإيجابيّ والفاعل؛ ما لم تعطَ لروحه التي بين جنبيه مركزيّتها، وما لم تنلْ درجة السبق في الاهتمام والعناية، وبخاصّة إذا أدركنا أنّ «حقيقة الإنسان تكمن في بعده المعنويّ وليس المادّيّ، وإنسانيّة الإنسان تتحقّق بروحه ووجدانه الأخلاقيّ وعقله»[1].

إنّ فلسفة الاستشراف في المنظومة الإسلاميّة من منظور مدرسة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، حينما تتأسّس على بنيان التكامل الروحيّ، وتقترح أو توجب أولويّة تربية الأنفس وبنائها التكامليّ في أيّ نهضة أو منظور إصلاحيّ؛ فهي إنّما تستهدف جوهر البناء الحضاريّ لأيّ أمّة من الأمم؛ لأنّها بذلك تؤسّس لإيجاد الكيان الذي تحفظ فيه همّة الفرد، ويمتلك فيه كلّ إنسان المروءة والصدق والشجاعة والامتناع عن الانقياد والتبعيّة، ويترفّع أو يزهد في مظاهر الدنيا الماتعة الزائفة، ويتسابق

(1) مظاهري، حسين: جهاد النفس، ترجمة: لجنة الهدى، ط1، بيروت، دار المحجّة؛ دار الرسول الأكرم ﷺ، 1993م، ص48.

نحو الارتقاء في مدارج العلم والمعرفة، وحسن التأدّب وكمال التعقّل، ويقتنع بالسعي نحو محبّة الآخرين والأخذ بأيديهم نحو الخير حيث كان؛ بما يضمن بناء مجتمع توحيديّ سليم، ويضمن وجود صيغ بشريّة عنوانها الصلاح والهدفيّة والأنموذجيّة وابتغاء الحقّ؛ كما أرشد إلى ذلك الأئمّة عليهم السلام: «**لاَ يُؤْنِسَنَّكَ إِلّا الحَقُّ وَلا يُوحِشَنَّكَ إِلّا البَاطِلُ**»[1]، «**وخض الغمرات للحقّ حيث كان**»[2].

ثانيًا: محوريّة أهل البيت عليهم السلام في الاستشراف:

1. الإمامة الشرعيّة أساس الاستشراف الروحيّ:

بناءً على ما تقدّم، لا يمكن ابتغاء تحصيل كمال هذه الروح ولا إصلاح هذه الجوانب المعنويّة والوجدانيّة والعقليّة في الإنسان من دون الاستناد إلى منظور الأئمّة الشرعيّين عليهم السلام من آل الرسول صلى الله عليه وآله، ومن دون التمسّك بنهجهم القويم في الإصلاح والاستنهاض، وبطرقهم في الترشيد؛ بوصفهم عنوان الطهارة والصفاء المعنويّ؛ استنادًا إلى تصريحات القرآن الكريم وإرشاداته النيّرة والمضيئة طريق العقول والقلوب: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾[3]. ففي هذا البيان القرآنيّ الخالد تحدّد للإنسان الآفاق الممتدّة في الزمان والمكان، كي يتوجّه نحو هذه الفئة من المخصوصين بالطهارة والطهر المطلق؛ توجيهًا للأفئدة والعقول؛ كي تبتغي الصلاح منهم، وتنتهج سبيلهم المؤدّي وحده دون سواه إلى الصلاح والكمال. فالكمال الحقيقيّ للبشريّة متوقّف على حسن الامتثال والتبعيّة لتجلّيات الطهر الخالص ومصاديق الكمال الحقيقيّ، فهم القادة والزعماء والمصلحون المربّون المكلّفون بمسؤوليّة «القيادة العامّة

(1) الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى العلويّ: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ ق/ 1370هـ ش، ج2، الخطبة130، ص13.

(2) م. ن، ج3، الرسالة31، ص39.

(3) سورة الأحزاب، الآية 33.

للأمّة في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعيّة والسياسيّة، وكذلك في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنويّ والروحيّ وحلّ المشاكل الفكريّة»[1].

لقد أدرك الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام أن المجتمع البشريّ لا يمكنه أن يكون مجتمعًا فاعلًا وإيجابيًّا، ولا يمكن أن يُوسَم بالمجتمع الإنسانيّ، حقيقةً ولا اعتبارًا، ما لم يكن الأفراد الذين يُؤَلِّفونه متّصفين بالقدر الكافي من الفاعليّة التي تؤهّلهم للمبادرة والمشاركة المثمرة في بناء الحضارة الإنسانيّة، وتشييد المجتمع القائم على أركانٍ وأسسٍ للعيش الإنسانيّ الكريم، الذي لا يتنكر فيه الإنسان لإنسانيّته.

هذا، وقد امتثل الأئمّة عليهم السلام للرؤية التخليقيّة الترشيديّة التي تحكّمت في أنظار الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى الإنسان؛ إذ «الشيء الذي يريده الأنبياء عليهم السلام هو الإنسان، ولا يوجد شيء آخر، فكلّ شيء ينبغي أن يتحوّل إلى صورة إنسان. فإذا تمّت صناعة الإنسان يصلح كلّ شيء»[2]؛ لذا، كان العنصر الأخلاقيّ عندهم أساس إنسانيّة هذا الإنسان، فإذا لم تكن الغايات التخليقيّة من أولويّات الحركة التغييريّة في أيّ مجتمع مستنهَض؛ فإنّ الفشل يكون حتمًا حليف هذه الحركة.

وغير خاف أنّ روّاد الحركة الإصلاحيّة وزعماء الثورة في الزمن المعاصر يشيرون إلى أنّ الخطر الأكبر المهدِّد للشعوب المستضعفة من قوى الاستكبار العالميّ، هو «سلب الاعتقاد بالدين وبالأصول الثوريّة وبالفكر الفعّال. . . بهدف القضاء على جذور الثقافة والتراث الفكريّ والقوميّ للشعوب»[3]. فالخوف الحقيقيّ لقوى الاستكبار هو «من الإيمان العميق عند الشعوب الغيورة والمعتقدة بالأصول والقيم»[4]. وأهمّ ما تعمل من أجل

(1) الخامنئي، علي: قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ترجمة: محمد علي آذرشب، ط2، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلاميّة، مديريّة الترجمة والنشر، 1998م، ص70.
(2) نور الدين، عباس: بحثًا عن نهج الإمام، ط1، بيروت، مركز بقية الله الأعظم، 1997م، ص77.
(3) م. ن، ص50.
(4) م. ن.

تحقيقه هذه القوى هو «القضاء على المفاهيم الإسلاميّة في الأذهان»[1]. لذا؛ فإنّ جوهر العمل الاستثاري في خطابات الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام قد تركّز مبكّرًا في محاولة صناعة الإنسان، عبر صياغة المنظومة القيميّة الخُلقية الكفيلة بتكوين الإنسان القادر والفاعل في محيطيه الخاصّ والعامّ.

أ. نحو استشراف مجتمع موَحَّد بالتوحيد:

في هذا الفضاء المعنويّ الصافيّ، يمكن أن نراهن على الإنسان الذي تنبعث في أعماقه وفي وجدانه أحاسيس المسؤوليّة الكبيرة تجاه المجتمع البشريّ. فلا يقبل بمجتمع بشريّ يتكوّن من بني جنسه وهو يراهم لا يسلكون سبيل التوحيد؛ بما تعنيه العبارة من «رؤية جميع الأشياء في فلك واحدٍ حول محورٍ واحدٍ. . التوحيد الذي يعني الانقياد التّام والخضوع المطلق للرّب الواحد الذي يدبّر جميع عوالم الوجود»[2].

فبالتوحيد يرى الإنسان الوجود بعين البصيرة، ويمتلك وعيًا ذاتيًّا وضميرًا حيًّا يدرك به حقيقة الصراط المستقيم الواجب انتهاجه، ويرى الأشياء كلّها محكومة وخاضعة لسلطة الله الإله الواحد الأحد، وكلّ شيء مظهر لوجوده وجلاله، وكلّ شيء بيده، وكلّ شيء يسبّح بحمده، ولا كمال له ولا جمال ولا قدرة إلا من الله وبالله وإلى الله.

هذا الفضاء التوحيديّ الذي يسير وفق صراط الله المستقيم، إنّما نخطّط لإيجاده ليتحرّك فيه الجميع نحو هدف أسمى؛ عنوانه العريض وشعاره الوحيد هو السعي نحو إيجاد مجتمع «يستطيع الإنسان فيه أن يطوي مسيرته التكامليّة في جميع الأبعاد، وأن تتفجّر فيه الطاقات الخيّرة والقوى الكامنة الإنسانيّة، ومن ثمّة صيانة هذا المجتمع ونظامه»[3]. في هذه الحال، يمكن الاطمئنان إلى بناء حضارة إنسانيّة حقيقيّة، ويمكن أن نطمع في إيجاد مجتمع سليم تسوده المحبّة والتآلف والتسالم بين جميع

(1) نور الدين، بحثاً عن نهج الإمام، م.س، ص49.
(2) الخامنئي، علي: أنوار الولاية، ط1، بيروت، مركز بقية الله الأعظم، 1999م، ص23.
(3) الخامنئي، قيادة الإمام الصادق عليه السلام، م. س، ص25.

أفراده، بعيدًا عن أجواء الحراب والبغضاء التي تتملّك القلوب جرّاء الهوس المادّيّ والفكر الجافّ البعيد عن أصول الروحانيّة والخالي من الإيمان والتسليم لخالق الخلق ومُوجِد البشريّة. ذلك الاحتراب الذي سبَّبه عدم التحرّج من اقتراف المعاصي والآثام، والاستسلام لعبادة الهوى والذات البشريّة، وما ينشأ عن ذلك من صور التفاخر والتحاسد والتباغض بين أبناء المجتمع الواحد.

وعلى العكس من ذلك، حين نُوجِد للإنسان البيئة السليمة التي يسلِّم فيها الجميع للواحد الأحد، ويصبح مقتنعًا في وعيه وضميره وقرارة نفسه بحقيقة كونه لا يرى مهيمنًا ولا سلطانًا حقيقيًا بالاتّباع والانقياد غير سلطان ذي الملك والملكوت وسلطان جبّار السماوات والأرض؛ عندها، لا يمكن أن يقبل بمجتمع بشريّ لا يسلك سبيل التوحيد؛ لأنّه يعني عنده الانقياد التامّ والخضوع المطلق للربّ الواحد الذي يدبّر جميع العوالم ويهيمن على الوجود كلّه. وهنا، يرى الفرد الموحِّد أنّ الطريق إلى المجتمع التوحيديّ هو توحيد المجتمع، وأنّ من أبرز علامات تحقّق التوحيد في المجتمع ومصاديقه: وحدة المجتمع واتّحاده وتآلف العناصر المكوِّنة له، وتعاونه على الخير والسلم والمحبّة والمصلحة الغيريّة، وتفضيل الآخر على الذات، وقضاء حاجاته؛ رغبة في الارتقاء في مدارج الكمال التوحيديّ.

وعند ذلك يصبح الفرد يرى قيمته الحقيقيّة في الانشغال بالواقع وبحاجات الناس وبهمومهم، وفي مشاركتهم نوائب الدهر ومكاره العيش، كما يرى أنّ الغاية الإنسانيّة الكبرى ليست في تمتيع النفس بما تطلب وترغب فيه، وإنّما في السعي إلى تجسيد قيم الخير والصلاح في المجتمع. فالفرد الموحِّد حقيقةً لا يعنى بمطالبه الخاصّة، ولا يركِّز على شؤونه الذاتيّة وهواجسه وطموحاته الفرديّة، بقدر ما يجعل من نفسه جزءًا من النسيج الاجتماعيّ، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالآخرين، ويعانقهم في المشترك الإنسانيّ. فغايته أن يبني مجتمعًا إنسانيًّا مثاليًّا تكون فيه الذات أساسًا

ومنطلقًا لجميع الفضائل والقيم الإيجابيّة المثاليّة المفتَقَدة في ظلّ سياسة الانحراف والغفلة التي تفرضها الرهانات المادّيّة المفتَقِدة للأساس الروحيّ في الحضارة.

ومن هذا المنطلق، تغدو العقيدة والتربية الأخلاقية والكمال الروحيّ -الذي هو أساس الاستشراف المستقبليّ للحضارة الإنسانيّة في منظور أهل البيت عليهم السلام- من أهمّ دعائم البناء المادّيّ للمجتمعات، ويتحقّق بها البعد التداوليّ العمليّ للعقيدة والإيمان؛ بما هما طاقة داخليّة خلاقة، تفجِّر في الفرد ينابيع الخير والمحبّة والصلاح. وعندما يغدو التوحيد أساس الوحدة الاجتماعيّة، تزول كلّ أشكال الاختلافات والنزاعات والصراعات المَرَضيّة التي تضيع معها الطاقات وتُهدر القدرات وتتبدّد أحلام النهوض والبناء؛ ذلك أنّ «الوحدة الاجتماعيّة الكاملة -التي هي سرّ المدينة الفاضلة- لا تتحقّق إلا بزوال جميع أسباب الصراع والاختلاف. هذه الصراعات التّي شهدناها ونشهدها في حياة البشريّة، وإنْ كانت تتّخذ أشكال النزاع الاقتصاديّ على المصالح والثروات طورًا، وأشكال النزاع السياسيّ على الأنظمة والحكم وطرق إدارة البلاد طورًا آخر، أو شكل النزاع العقائديّ بين الديانات والمذاهب طورًا ثالثًا، إلا أنّ مرجع جميع هذه الصراعات وأصلها هو هذه الأنانيّة التي تظهر بصور وأشكال مختلفة»[1].

ومن هنا، تبدو الأهمّيّة والمركزيّة الحاسمة للرهان الروحيّ العقديّ في أيّ عمليّة استشرافيّة. فهو يبدو بمنزلة المحور وقطب الرحى الذي تدور حوله باقي الأشياء ذات الصلة بحركة الإنسان في المجتمع، وحركة المجتمع في الكون. فحين ننجح في إيجاد الفرد الموحِّد حقيقة التوحيد، المرتبط بربّه والمنقاد قيادة حقيقيّة لخالقه، لا لغرائزه وشهواته وأنانيّته المفرطة؛ حينئذٍ، يمكننا الحديث عن إمكانيّة تحقيق نهضة اجتماعيّة وحضاريّة حقيقيّة.

(1) الخامنئي، أنوار الولاية، م. س، ص13.

إنّ الرهان يكمن في تحقيق الوحدة الروحيّة بين أفراد المجتمع البشريّ؛ لأنّها بداية الطريق، وشرط تحقيق الوحدة الحقيقيّة والكاملة وسبيلها[1].

هذا المطلب الذي وجب أن يكون في مقدّمة أولويّات الباحثين والمخطّطين والساعين نحو حياة مستقبليّة أفضل للبشريّة؛ للبحث فيه عن كيفيّة ربط الإنسان بأصل صلاحه وكماله، الذي هو إصلاح نفسه وتحرير عقله وعقيدته من غير حقيقة التوحيد التي تتيح له الانطلاق الإيجابيّ والفعّال في المجتمع في مختلف أبعاده الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة. . . وكلّ ذلك يعني الاضمحلال والزوال لجميع أشكال الاختلاف والتنازع التي مصدرها الأنانيّات الخاصّة والذاتيّات الضيّقة، وعبادة الأنا أو «حبّ النفس الذي هو أخطر شراك إبليس اللعين»[2]. وبعبارة أخرى، فأساس صلاح شأن الناس وشأن المجتمعات والأمم، وأساس بناء الحضارات المرجوِّ لها البقاءُ والدوامُ والاستمراريّةُ والتكاملُ، إنّما ينطلق من مسألة إيجاد ذلك الأنموذج البشريّ الذي يتغلّب على أنانيّته ويتخطّى صنميّة أناه، فـ«لبّ جميع التعاليم والأحكام والأوامر الإلهيّة وشرائع الأنبياء هو هذه الكلمة الواحدة: العبوديّة»[3].

ولا يخفى أنّ هذا الأمر على خطورته وأهمّيّته الحاسمة في نجاح أيّ مشروع حضاريّ أو فشله، لم تلتفت إليه برامج الاستنهاض في العالم، ولم تضعه محور التدارس والاهتمام، ولم تتّخذه أولويّة مصيريّة وأساس النهضة؛ لأنّها تقترح البرامج العلميّة الدقيقة القائمة على الاستنتاجات والإحصاءات العلميّة والمؤشّرات المادّيّة الملحوظة والصحيحة ظاهريًّا، لكنّها لا تنتبه ولا تراعي خطورة الجانب المعنويّ وفعّاليّته.

---

(1) انظر: الخامنئي، أنوار الولاية، م. س، ص14.

(2) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: وصايا عرفانيّة، ترجمة: عباس نور الدين، ط1، بيروت، مركز بقيّة الله الأعظم، 1998م، ص62.

(3) الخامنئيّ، أنوار الولاية، م. س، ص35.

ب. نحو استشراف بأمومة أَئمّة أهل البيت عليهم السلام:

غير خاف على أيّ مهتمّ بالفكر الإسلاميّ وأصول شريعته الغرّاء المكانةُ الخاصّة لأهل البيت عليهم السلام ولفكرهم الأصيل في المخيلة الإسلاميّ خاصّة، وفي الذاكرة الإنسانيّة عمومًا. لقد اقتضت الحكمة الربّانيّة اصطفاء فئة مخصوصة من أهل البيت عليهم السلام، وتنزيلهم مكانة دينيّة متميّزة، وأسندت إليهم وظيفة التبليغ والإرشاد والقيادة العامّة للبشريّة، وبالمقابل ألزمت الأمّة باتّباعهم وموالاتهم؛ بوصفهم امتدادًا للنبوّة، وتشريعًا ربّانيًّا توقيفيًّا معصومًا، وتكليفًا غيبيًّا جعليًّا، لا مجال للاجتهاد في قبوله أو رفضه. وبالنظر إلى أنّهم يمثّلون وحدهم المرجعيّة الحقيقيّة الصحيحة والتامّة للبشريّة؛ بمدلولاتها الفكريّة والقياديّة السياسيّة معًا؛ مثلما تمثّلتا في شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتكميلًا واستمرارًا لمشروع السماء في الأرض وبين الناس، وهو ما يفرض وجوبًا -فطرةً وعقلًا وقلبًا- ضرورة تبوُّئِهم المكانة الأولى في مشاريع الإصلاح المستقبليّة، وفي جميع البرامج ذات الطابع الاستشرافيّ للأمم والحضارة.

فالأدلّة الشرعيّة تأخذ بالأعناق إلى الأخذ بمذهب الأئمّة من أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل[1]، والذين لا يجرؤ أحد على القول بتفضيل غيرهم عليهم في علم أو عمل، فهم سفن نجاة الأمّة، وباب حطّتها، وأمانها من الاختلاف في الدين، وأعلام هدايتها، وثقل رسول الله، وبقيّته في أمّته[2]. لذا؛ أجمع المسلمون بمختلف طوائفهم ومللهم على تقديم أهل البيت؛ لما لهم في نفسيّة كلّ فرد مسلم ومخيّلته من تعظيم وإجلال.

«لقد بيّن الجاحظ في إحدى رسائله عناصر هذا السبق في صيغة تساؤل تقريريّ: «كيف يقاس بقوم منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأطيبان: عليّ وفاطمة،

(1) انظر: شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات (أبحاث جديدة في أصول المذهب والإمامة العامّة)، تحقيق وتعليق: حسين الراضي، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، لا ت، ص14-16.

(2) انظر: م. ن، ص15-16.

والسبطان: الحسن والحسين. . . النجدة والخير فيهم، والأنصارُ أنصارُهم، والمهاجرُ من هاجر إليهم ومعهم، والصديقُ من صدَّقهم، والفاروقُ من فرقَ بينَ الحقِّ والباطل فيهم، والحَوَارِيُّ حواريهم، وذو الشهادتين لأنَّه شَهدَ لهم، ولا خيرَ إلا فيهم ولهم ومنهم ومعهم»[1]؛ لذا، وبمعرفة منازلهم ومنازل طاعتهم ومراتب أعمالهم وأقدار أفعالهم -مضافًا إلى حقّ القرابة التي لهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- كان لزامًا على الأمّة والبشريّة جمعاء، بل «أدنى ما يجب -حسب الجاحظ- علينا الاحتجاج لهم»[2].

إنّ أهل البيت عليهم السلام كما عرَّفهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**هُمْ عَيشُ العلم ومَوتُ الجهل، يُخبركُم حِلمُهم عن عِلمِهم، وظاهرُهم عن باطِنِهم، وصَمتُهُم عن حِكَم مَنطقِهم، لا يخالفون الحقَّ ولا يختلفون فيه، هم دعائمُ الإسلام، ووَلائِجُ الاعتِصام، بهم عادَ الحقُّ إلى نِصابه، وانزاحَ الباطلُ عن مَقامِه، وانقطعَ لسانُه عن مَنْبِته، عَقلُوا الدينَ عقلَ وِعايَةٍ ودِرايةٍ لا عَقلَ سماعٍ ورِوايةٍ، فإنَّ رُواةَ العلم كثيرٌ ورُعاتَه قليلٌ**»[3]. فهم من طينة متميّزة؛ لأنّ «**مقام أئمّة أهل البيت عليهم السلام هو فرع لمقام النبيّ الأعظم** صلى الله عليه وآله وسلم»[4]. هذه المكانة عنوانها الطّهر والقداسة التي تليق وحدها بالخلافة عن الله تعالى، والتصدّي لبيان أحكامه، وتطبيق شريعته في الأرض وبين الناس. وكما قال الراغب الأصفهاني: «لا يصلح لخلافة الله، ولا يكمل لعبادته وعمرة أرضه؛ إلا مَنْ كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها، فللنفس نجاسة؛ كما أنّ للبدن نجاسة، لكنّ نجاسة البدن قد تدرك بالبصر، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة. . . وإنّما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس؛ لأنّ الخلافة هي الاقتداء به

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد طه الحاجري، بيروت، دار النهضة، 1982م، ص52.

(2) م. ن، ص59.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م. س، ج2، الخطبة239، ص232.

(4) هاني، إدريس: الإمام المهديّ عليه السلام حقيقة تاريخيّة أم فرضيّة فلسفيّة؟، ط1، بيروت، دار المحجّة البيضاء، 2011م، ص11.

تعالى على الطاقة البشريّة، ومن لم يكن طاهر القول والفعل، فكلّ إناء بالذي فيه يرشح»[1].

والأئمّة عليهم السلام أفراد من الأسرة الهاشميّة، اتّفقت كثير من مصادر السيرة والحديث وكتب التاريخ، على أنّهم محدَّدون ومعيَّنون بالوحي (القرآن والسنّة)[2]. أو بعبارة المستشرق أَلْفرِد بِلْ: هم أولئك «المقرَّرون بقرار إلهيّ. . . ولهم مكانتهم الدينيّة. . . من عترة النبيّ»[3]، وهم «الوارثون لمكانته السامية، وعلومه ومناقبه الروحيّة الخاصّة، وهم جميعًا من ذرّيّته المباشرة من (ابنته) فاطمة، وهم إذًا، بعد علي بن أبي طالب، حفيد الرسول الحسن، وبعده الحسين، وبعده سلسلة الأئمّة العلويّين التسعة»[4].

وهؤلاء هم مَنْ يُعرَفون بالأئمّة الاثني عشر، حازوا مكانتهم المتميّزة من جهة ارتباطهم النَّسَبِيّ بالبيت النبويّ، فضلًا عن الارتباط العقديّ الخاصّ. وهم استنادًا إلى ذلك ذوو مسؤوليّات ترشيديّة وتخليقيّة يستكملون من خلالها مسؤوليّات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتابعونه ويستلهمون منه ويقتفون آثاره. فهم مَنْ يضمن «سلامة الهداية الدينيّة للأمّة الإسلاميّة من الناحية الروحيّة»[5].

هذا التميّز يقتضي بداهة أن تكون جميع خطاباتهم وبياناتهم وتوجيهاتهم متخَذَةً ركيزة أساسًا في أيّ عمليّة استشرافيّة؛ لأنّها -عقلًا وشرعًا- لا يمكن سوى أن تكون معنيّةً بقضايا الإنسان، وبإصلاح المجتمعات، وبناء الجماعة البشرية الصالحة في كلّ زمان ومكان. وهو ما يفضي إلى ضرورة أن توضع كلّ الإنتاجات المأثورة عنهم في سياقاتها المرجعيّة التداوليّة؛ بما يتجاوز

(1) الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (الراغب): الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، ط1، القاهرة، مكتبة الكلّيّة الأزهريّة، 1394هـ ق، ص29.

(2) تتّفق كثير من مصادر الفكر الإسلاميّ على نصوص دينيّة بصيغ مختلفة؛ لفظًا أو تأويلًا، تحدّد من هم أئمّة أهل البيت عليهم السلام. (انظر: الحسيني اليزدي الفيروزآبادي، مرتضى: فضائل الخمسة من الصحاح الستّة (3\3)، ط7، قم المقدّسة، مكتبة الفيروزآبادي، 1413هـ ق).

(3) بل، ألفرد: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ -من الفتح العربي حتى اليوم-، ترجمه عن الفرنسيّة: عبد الرحمن بدوي، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، 1987م، ص152-153.

(4) م. ن، ص153.

(5) م. ن، ص153-154.

بها حالة الدلالة السكونيّة اللازمة المقصوصة عن الفعل والتطبيق، وبما يشارف بها سياقها الإبلاغيّ والمقصديّ الذي يرتقي بها؛ ليجعل منها خطابًا متعدّيًا، معنيًّا بتحقيق التخليق والإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ، ونشر المعرفة السلوكيّة والعمليّة وتثبيتها؛ لتشكيل الشخصيّة الإسلاميّة الربّانيّة الصالحة والمتكاملة.

2. **الاستشراف وحتميّة الإمامة الشرعيّة:**

من العناصر الأساسيّة في الاستشراف المستقبليّ في منظومة التفكير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، الاهتمام بالتنظير لمسألة الإمامة، وجعلها مسألة محوريّة وأساس العقيدة والتديّن. فمضافًا إلى منصب النبوّة والرّسالة ومنصب تعليم الأحكام وتبيينها، تلحّ المنظومة الفكريّة العقديّة الشيعيّة على ضرورة وجود منصب آخر موازٍ وملازم لها؛ هو منصب قيادة الأمّة الإسلاميّة والولاية عليها؛ «لكي تقوم المرجعيّة الفكريّة بملء الفراغات التي قد تواجهها ذهنيّة المسلمين، وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الإسلاميّة فيما يستجدّ من قضايا الفكر والحياة، وتفسير ما يَشكُل ويَغْمُض من معطيات الكتاب الكريم، الذي يشكِّل المصدر الأوّل للمرجعيّة الفكريّة في الإسلام، ولكي تقوم المرجعيّة القياديّة الاجتماعيّة بمواصلة المسيرة، وقيادة المسيرة الإسلاميّة في خطّها الاجتماعيّ»[1]، وما يتفرّع عن هذا المنصب من مهام أخرى بديهيّة؛ كالقضاء، والقيادة العسكريّة، وغيرهما من المهام الدنيويّة ذات الصلة بحياة الناس في المجتمع وعلاقاتهم ومطالبهم. بالشكل الذي يضمن تكميل دور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتطبيق تشريعاته؛ للدفع بالإنسانيّة والكائنات في هذا الوجود المادّيّ، لتسير نحو التكامل وتحقيق هدفيّة الخلق الأصيلة المؤسَّسة على تعليمات صحيحة معصومة سليمة وخالية من الخطأ أو العبث أو الخضوع للمصلحة الفرديّة الضيّقة.

هذا الدور هو عينه الغرض الأساس والمبرّر العقليّ والشرعيّ الموجب

(1) الصدر، محمد باقر: نشأة الشيعة والتشيّع، تحقيق وتعليق عبد الجبار شرارة، ط4، بيروت، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، 1999م، ص85-86.

لمنصب الإمامة مع النبوّة وبعدها. وهو الذي تناط به جميع هذه المهام وغيرها. وهو منصب ترى مدرسة أهل البيت أنّه منصب جعليّ توقيفيّ، حسم فيه الوحي، ولا دخل للاختيار البشريّ فيه؛ مثله مثل منصب النبوّة والرسالة؛ أي إنّه «لا يكون إلا عن طريق العلم الإلهيّ؛ أي الوحي الذي ينزل على الأنبياء، فإنّ الله الذي خلقنا لكي نسير في هذا الطريق، لا بدّ له من أن يتيح لنا مثل هذا العلم وهذه المعرفة»[1].

ومن ثمّة تكون مسألة الإمامة داخلة «ضمن المسائل الاعتقاديّة الأصليّة في الدين؛ لأنّها تكون بمنزلة النبوّة، وإنْ اختلفت عنها، وتكون هذه المسألة مرهونة بها النجاة يوم القيامة»[2].

هذا الأمر لا يتحقّق إلا بوجود إمام متميّز عن غيره من باقي البشر بمعارفه وعلومه التي تمكّنه من المعرفة الدقيقة بأحوال الناس وطبائعهم ونفسيّاتهم وعقولهم وعواطفهم وحاجاتهم ومشكلاتهم الصريحة المعلنة والدفينة المضمرة، يكون على قدر من السداد الذي يجعله مأمونًا من الوقوع في الخطإ بجميع أنواعه؛ لِئَلاَّ يكون في قيادته سببًا لإهلاك الآخرين وسوقهم نحو الأزمات، كما لا يكون لديه تقديمٌ لمصالح شخصيّة ولا لأيّ من أقربائه وعشيرته والمحيطين به، وله من الشجاعة والإقدام والجرأة ما يضمن معه تسطير القوانين كاملة وتنفيذها بتمامها، من دون تردّد ولا خوف أو وجل من إرهاب قوّة أو شخصيّة في المجتمع. وفي الوقت نفسه له من المحبّة والرأفة والحبّ للناس ما يجعله عطوفًا على الجميع ومستشعرًا لآلامهم وعذاباتهم. وعطفًا على ذلك؛ يكون مبادرًا إلى مساعدتهم وإصلاح شؤونهم. وهذه من أولى سمات الإمام الربّانيّ المقترح والمنصوص عليه في الوحي.

(1) الشيرازيّ، ناصر مكارم: معرفة النبوّة، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، ط2، بيروت، دار الصفوة، 1993م، ص13.

(2) بحر العلوم، محمد علي: الإمامة الإلهيّة (تقريرًا لبحوث الشيخ محمد السند البحراني)، ط1، بيروت، دار الأميرة، 2012م، ج1، ص258.

وبناءً على ما تقدّم، يبدو مدى تميّز المنظومة الفكريّة العقديّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ بامتلاكها رؤية استشرافيّة واضحة المعالم، تلامس مشكلة القيادة العامّة في المجتمع البشريّ، وتعالج أخطر قضيّة يتأكّد يومًا بعد آخر أنّها أمّ القضايا ومحورها وعصبها؛ بوصفها العنصر الجامع لجميع القضايا الأخرى، وعنها تتفرّع باقي الفروع الدينيّة والدنيويّة.

ولعلّها عمليّة استشرافيّة على قدر من التميّز عن غيرها من الاستراتيجيّات المستقبليّة المعتمدة في تاريخ الأمم والحضارات، بالنظر إلى تركيزها على اقتراح قيادة ربّانيّة تكون مؤهّلة لصناعة الإنسان وناظرةً إليه في أبعاده المختلفة، واقتراح الخطّة الشاملة القادرة على المعالجة الجوهريّة لقضاياه.

3. **الاستشراف عبر التنصيص على الإمامة الشرعيّة:**

من يراجع السيرة النبويّة الشريفة، وما أُثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث تناقلها المسلمون بجميع فرقهم ومذاهبهم، وتداولتها كتب الحديث والتفسير والسيرة والأخبار، يدرك جيّدًا محوريّة الإمامة في الاستشراف المستقبليّ، ومركزيّة الإمام في البناء المستقبليّ للأمّة على امتداد وجودها. ويتبيّن ذلك من خلال تركيز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جاهدًا منذ انطلاق مسيرة تبليغ الوحي للبشريّة على إعداد الرأي العامّ لهذه المسألة، ولم يألُ جهدًا في التنبيه الملحّ على ضرورة التسليم لسلطة الوحي بشأن مركزيّة الإمامة الشرعيّة وضرورة حفظها والامتثال لمقرّراتها. وقد اتّخذ ذلك وجهين متلازمين؛ أحدهما الإعداد التربويّ والفكريّ الرساليّ لشخصيّة الإمام؛ كما تجسّد ذلك في تعامله صلى الله عليه وآله وسلم مع الإمام عليّ عليه السلام، حيث تعهّده برعاية خاصّة؛ تربيّةً وتثقيفًا فكريًّا وعقديًّا، استعدادًا لمنصب الإمامة العامّة من بعده، وتولّي مهمّة القيادة الاجتماعيّة والسياسيّة، وترسيمًا استشرافيًّا لخطّة القيادة العامّة للبشريّة في كلّ زمان ومكان عبر تقديم الأنموذج الكامل لطبيعة القائد المطلوب. والأمر الثاني تهيئة الأمّة المسلمة وتربيتها فكريًّا

وعقديًّا للاقتناع بولاية الإمام علي عليه السلام والتسليم بأمر الإمامة الشرعيّة وطابعها الوحيانيّ التوقيفيّ.

هذه الحقيقة الاستراتيجيّة كثيرًا ما كان الرسول صلى الله عليه وآله يجهّز لها الأمّة في كلّ مناسبة. ففي كلّ فرصة تتاح له، كان يهيّئ صحابته لقبول الإمامة الشرعيّة وموالاة خلفائه وأوصيائه من بعده؛ بل كان يُلحّ ويُكرّر صيغ التوجيه والتذكير والطلب والأمر والترغيب والنهي، وينوّع في أساليب التوصية بأهل البيت عليهم السلام؛ لأنّه كان يستشرف المستقبل، ويدرك بما لديه من علم لدنيّ ووحي ربّانيّ أنّ الأمّة سوف تبحث عن كلّ المبرّرات والأعذار، مهما تكن واهية، من أجل أن تحاصر فكرة شريعة الإمامة النصّيّة الربّانيّة، وتستعيض عنها بشريعة الاختيار والتصدّي البشريّ لمقام الرئاسة والقيادة السياسيّة الدنيويّة. فكأنّ إلحاحات الرسول صلى الله عليه وآله إنّما كانت نوعًا من الاستشراف المستقبليّ والتخطيط الاستراتيجيّ الذي كان يراه صلى الله عليه وآله ويؤمن يقينًا أنّه وحده الاختيار والتعيين الذي يمكن أن يعوَّل عليه لحفظ الأمّة وصيانة مشروع الإمامة الربّانيّة في الكون؛ بما هي الوسيلة المثلى والوحيدة لضمان سعادة البشريّة واستمراريّتها.

بل إنّ تأكيدات الرسول صلى الله عليه وآله، وتواتر توصياته بالأئمّة وبالإمامة وضرورة حفظها، وتنبيهاته وتحذيراته من مغبّة المساس بمقام الأئمّة أو مخالفتهم أو ظلمهم أو عدم موالاتهم...؛ كلّ ذلك يلفت الواعي وصاحب البصيرة إلى أنّ ثمّة استشرافًا مسبقًا منه صلى الله عليه وآله لطبيعة المسار الذي كان يرى أنّ الأمّة سوف تتّخذه!

ومن ذلك ما جاء في مستدرك الصحيحين: «لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقُمِمْن، فقال: **كأنّي دعيت فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله تعالى، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض (ثمّ قال) إنّ الله عزّ وجلّ مولاي، وأنا مولى كلّ مؤمن، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال:**

من كنتُ مولاه فهذا وليّه، اللّهم وال من والاه وعادِ من عاداه»[1].

وكثيرًا ما ردّد الرسول ﷺ أنّ عليًّا عليه السلام سيّد في الدنيا والآخرة؛ كما في مستدرك الصحيحين، عن ابن عباس: نظر النبي ﷺ إلى عليّ عليه السلام، فقال: «**أنت سيّد في الدنيا، وسيّد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله، والويل لمن أبغضك بعدي**»[2].

وحين رجوع الرسول ﷺ من حجّة الوداع، جمع الحجيج بمكان يُقال له (غدير خم)، وألقى فيهم خطبة شهيرة مطوّلة، أعلن فيها رسميًّا وبشكل صريح لا لبس فيه، وبما لا يقبل التأويل ولا الاختلاف، أنّ عليًّا بن أبي طالب هو الإمام الشرعيّ للمسلمين، وهو الخليفة والوصي بعد رسول الله، وهو ولّي كلّ مؤمن ومؤمنة. وفي اليوم نفسه وبعد هذا التعيين العلني، نزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[3].

ومن يتأمّل التوصيات الصريحة بالإمامة الشرعيّة، وتعيين الوحي للأئمّة بأسمائهم أو صفاتهم، ووضع علامات وآيات دقيقة؛ بوصفها معالم ثابتة وهادية للبشريّة في مستقبلها في هذا الشأن، يدرك جيّدًا البعد العقديّ لذلك، ويتَبيّن بجلاء أنّها مسألة رابطة بين الشّأن الدنيويّ والشأن الأخرويّ؛ بل إنّ ثمّة ارتباط سبب بنتيجة، مؤدّاه: أنّ المصير في الآخرة متوقّف على حسن الاختيار والتولّي للإمامة الصحيحة والسليمة والشرعيّة في هذه الدنيا، فلا نجاة ولا فلاح ولا دين يرجى له التمكّن والاكتمال في هذه الدنيا، ولا احتمال لبلوغ العبد مرحلة الكمال الروحيّ والمعنويّ، بما يرجى معه تبرئة الذمّة والخلاص الأخرويّ؛ إلا بحسن الائتمام وبصوابيّة الاختيار.

بل إنّ ارتباط الدّنيا بالآخرة، واعتبار السّعي في الحياة الدنيا جزءًا من

(1) الحاكم النيسابوريّ، أبو عبدالله: المستدرك على الصحيحين، طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، لا ت، ج3، ص109.

(2) الحاكم النيسابوريّ، المستدرك على الصحيحين، م. س، ج3، ص128.

(3) سورة المائدة، الآية 3.

العمل للآخرة، يقتضي بداهةً ومنطقًا أن تكون ثمّة عناية إلهيّة بشؤون الناس في هذه الدنيا. فلا يعقل أن نعزل الدين عن الدنيا، كما لا يعقل أن تُوكَل أمور الناس وسياسة شؤون الدنيا إلى الإنسان نفسه؛ لأنّه بذلك «تفتح الأبواب أمام الجبابرة والطواغيت والمحتالين للتوصّل إلى مطامعهم ومآربهم، وتوفّر عوامل التفرقة والانحطاط والتخلّف بين المسلمين»[1].

وعليه، يبدو البعد الاستشرافيّ لجعل الإمامة أمرًا إلهيًّا محدّدًا بالوحي. فهذا وحده الأمر الذي من شأنه أن يقطع الطريق على تلاعبات البشر التي حصلت ولا تزال تحصل منذ أن تمّ الفصل بين النبوّة أو الرسالة وبين الإمامة، التي هي «موضوعة لخلافة النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[2]، وهي «نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به»، و«حمل الكافّة على مقتضى النظر الشرعيّ في مصالحهم الأخرويّة والدنيويّة الراجعة إليها»[3].

وما حصل في تاريخ الأمم من انحراف واضطراب في شؤون الناس العامّة والخاصّة، إنّما مردّه إلى التفريط في شأن الإمامة، وعدم إدراك حقيقتها أو مراعاتها، حيث سارت البشريّة نحو مجاهل وانحرافات لا حدود لها، وجَرَّ الاعتقاد بكون الرئاسة والقيادة العامّة للأمور الدنيويّة شأنًا غيرَ وَحْيانِيّ كثيرًا من الويلات والحروب والتطاحن بين الناس. وقد انعكس ذلك سلبًا على سعادة المجتمعات ومستويات معيشتها واستقرارها المادّيّ والمعنويّ.

إنّ الرسالة الخاتمة تقتضي أنْ لا يترك الرسول ﷺ فراغًا في حياته ولا بعد مماته، فهو يعلن الإمام الشرعيّ، ويعلن بذلك كمال الدين وتمامه، ويسدّ جميع النوافذ التي يمكن استغلالها للمساس بعالميّة الرسالة

(1) اليزدي، محمد تقي مصباح: دروس في العقيدة الإسلاميّة، ط1، بيروت، دار الحقّ، 1994م، ص339.
(2) الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانيّة، بيروت، منشورات محمد علي بيضون؛ دار الكتب العلميّة، لا ت، ص5.
(3) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدّمة، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1993م، ص151.

وقدسيّتها وخلودها إلى يوم الدين؛ من خلال تعيين الإمام الشرعيّ وحارس شؤون الدين والدنيا المسدَّد والمؤيَّد بالله والوحي.

ثالثًا: فلسفة الانتظار والبعد الاستشرافيّ:

1. المهدويّة واستشراف المستقبل:

تتميّز المنظومة الفكريّة العقديّة في الإسلام عمومًا، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام خصوصًا، بما يُعرف بالعقيدة المهدويّة، التي هي بحقّ «إحدى أهمّ المعتقدات الإسلاميّة»[1]؛ وهي فكرة «قارّة راسخة في عقائد المسلمين، صنَّف فيها المسلمون ما لا يُردّ ولا يُكذَّب»[2]؛ ذلك أنّ ثمّة روايات وحيانيّة صريحة متعدّدة تداولتها أشهر كتب الحديث والسيرة وسير الأعلام والتراجم وكتب التاريخ والتفسير، وغيرها من الكتب المعتبرة والرائجة بين المسلمين بمختلف مدارسهم ومذاهبهم[3]، بحيث «تبلغ حدّ التواتر»[4] وهي تشير إلى مسألة ظهور أو خروج الإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه، وتبشِّر بظهوره في إبان مسيرة هذه الدنيا؛ ليصلح شأن البشريّة، ويكمل مسيرة البناء التكامليّ والتربويّ للحضارة الدنيويّة، ويحقّق الوعد الإلهيّ بإقامة دولة الحقّ ونصرة دينه على الدين كلّه، وتوريث الأرض عبادَه الصالحين؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا

(1) هاني، الإمام المهديّ حقيقة تاريخيّة أم فرضيّة فلسفية؟، م. س، ص5.
(2) م. ن، ص207.
وتجدر الإشارة إلى أنّ فكرة ظهور المنقذ العظيم في آخر الزمان لنشر العدل وإقامة الحقّ والقضاء على الظلم موجودة لدى أهل الأديان الثلاثة، واعتقدت بها معظم الشعوب والملل؛ حيث آمن بها اليهود؛ مثلما آمن النصارى بعودة المسيح عليه السلام، وآمن الزرادشتيّون بعودة براهام شاه، وكذلك الهنود والمجوس والبوذيّون، كما وجد هذا المعتقد عند قدماء المصريّين والصينيّين.
(3) يشير الحافظ الآبري (ت: 363هـ) إلى أنّه «قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وآله، في المهديّ، وأنّه من أهل بيته، وأنّه يملك سبع سنين، ويملأ الأرض عدلًا، وأنّ عيسى عليه السلام يخرج، فيساعده على قتل الدجّال، وأنّه يؤمّ هذه الأمّة وعيسى خلفه، في طول من قصّته وأمره». (نقلًا عن: المزّي، يوسف: تهذيب الكمال، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عوّاد معروف، ط1، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1413هـ ق/ 1992م، ج25، ص149).
(4) اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، م. س، ص374.

فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[1]، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[2].

وإذا كانت النصوص في ذلك كثيرة ومتواترة؛ بما لا يتّسع له سياق الكلام في هذه الدراسة، فإنّنا نكتفي بانتقاء هذه الرواية الشريفة من قوله ﷺ فيما روي عن أبي سعيد الخدريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السّاعةُ حَتّى تَمْتَلِئَ الأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوانًا، قال: ثُمّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَمْلَؤُها قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وجَوْرًا**»[3].

فهذه الرواية -كمثيلاتها من الروايات- تبدو ذات حمولة استشرافيّة واضحة؛ لأنّها توجّه آفاق البشريّة جمعاء، بل توجّه الوجود برمّته نحو مستقبل مشرق وحتميّ، يَعِد بإقامة الحكومة الإلهيّة على الأرض كلّها. هذا الشأن المستقبليّ، الذي قد يبدو غيبًا محضًا، يتدخَّل فيه الوحي ويتكفّل بحسمه حسمًا إيجابيًّا وفعّالًا؛ لأنّه يضع البوصلة في اتّجاه إيجابيّ محض؛ بما يبدّد حالات اليأس والتشاؤم، ويزيل جميع مظاهر الإحباط أو الكلل التي يمكن أن تتسلّل إلى الوجدان البشريّ؛ جرّاء طغيان الظلم والجبروت، ورجحان كفّة الاستكبار والقهر والتسلّط على رقاب الناس. فحين ينبّئ الوحي عن الغيب المستقبليّ للبشريّة في هذه الدنيا؛ بحتميّة المآل إلى الخير، وتوافر الأجواء المناسبة لتقبّل الدين الحقّ، وحتميّة ظهور إمام مصلح يحقّق ما كان جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام المبعوثون يسعون ويجاهدون من أجل تحقيقه في هذه الدنيا؛ وهو إقامة الحكومة الإلهيّة العالميّة، وتشكيل المجتمع المثاليّ القائم على أساس عبادة الله والقيم والتعاليم الإلهيّة ونشر العدل والقسط في الأرض كلّها[4]؛ فإنّ هذا

(1) سورة الأنبياء، الآية 105.
(2) سورة القصص، الآية 5.
(3) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، م. س، ج4، ح555.
(4) انظر: اليزديّ، دروس في العقيدة الإسلاميّة، م. س، ص371-372.

في حقيقته يغدو مشروعًا معدودًا في صميم الاهتمامات الاستشرافيّة، وضمن أولى أوّلويّات أيّ تخطيط مستقبليّ وبرمجة لحالة إصلاحيّة مرتقبة للمجتمع؛ يُراد الوصول إليها، ويُعمل من أجلها.

إنّ الوعد بظهور الإمام المصلح استشراف حضاريّ وأمر يستوجب أن تتحفّز من أجله جميع الهمم والإرادات، ويتطلّب أن تتحرّك نحوه جميع الطاقات والقدرات؛ بإخلاص وحماس وتفانٍ مطلق، نظرًا إلى أنّه يجعل لحالات الحرمان والظلم نهاية حتميّة، ومن ثمّة يدفع بالكيان البشريّ إلى ضرورة إنجاز حركيّة حقيقيّة نحو هذه اللحظة المشرقة؛ بما يفيد كون فلسفة المهدويّة والظهور في حدّ ذاتها تخطيطًا استراتيجيًّا يسوق العالم نحو تَرَسُّم سبيل الخير والرشاد والعمل في اتّجاه الكينونة الحقيقيّة والعمليّة السلوكيّة مع هذا المصلح الموعود والمرتقب. وهو ما يعني بداهةً -على المستوى الفرديّ أو الشخصيّ- ضرورة التخلّص من الأخلاق الذميمة والصفات الرديئة، والسعي نحو حالات التكامل والطهر والتخلّق بأخلاق الصلاح والخير، التي تؤهّل صاحبها للكينونة مع هذا الإمام عجل الله فرجه. والأمر نفسه على المستوى العامّ، يكمن بالسعي نحو تخليص المجتمع من الظلم والجور والانحراف والوصول به إلى حالة النقاء والصفاء العامّ الذي يمكن معه استقبال القائد الربّانيّ الموعود. ومن هنا، ندرك قيمة الانتظار وأهمّيّة هذه العقيدة التي تُرغِّب المؤمن وتُشوِّقه لكي يكون دائمًا في حالة يعتقد بقرب ظهور الإمام المهديّ المصلح عجل الله فرجه، الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا؛ بعدما مُلئت ظُلمًا وجورًا.

2. الانتظار وحتميّة الفرج:

ولا يخفى الطابع الاستشرافيّ الفريد والمتميّز لفلسفة الانتظار؛ لما تشكّله من رؤية تنويريّة ترشيديّة وفاعلة؛ توجّه الأنظار نحو المستقبل، فهي من هذا الجانب، بلا شكّ، خاصّيّة استشرافيّة فريدة ومتميّزة؛ لأنّها دافعة إلى صنع ذلك الإنسان الأنموذجيّ الذي يمكن التّعويل عليه،

والاطمئنان إلى شخصيّته وقدراته في الارتقاء بالمجتمع والدفع به نحو آفاق عليا من التكامل والرقي، وتحقيق الازدهارين المادّيّ والمعنويّ للمجتمع الإنسانيّ، في الحياة الدنيا أولًا، وتحقيق الفوز والنجاة في الحياة الأخرى ثانياً. تلك هي خاصّيّة الانتظار بما تحمله من دلالات وأبعاد عقديّة وتربويّة وأخلاقيّة، تطال الفرد والمجتمع. وفي مقدِّمة ذلك ضرورة تثبيت حالة شدّة التعلّق والتذكّر للإمام الشرعيّ الموعود عجل الله فرجه؛ بأنّه هو وحده المصلح المنقذ للبشريّة. فلا بدّ من استمرار حالة الشعور بالوجود الفعليّ والحقيقيّ للإمام عجل الله فرجه، والتفاعل الوجدانيّ الشعوريّ معه، والارتباط بهويّته، وعدم الانقطاع أو الفتور عن ذكره. وما نجده في المدرسة الإماميّة من تأكيد على ضرورة قراءة الأدعية والزيارات ذات الصلة بالإمام المهديّ عجل الله فرجه يجب أن يفهم في هذا السياق؛ وهو العمل على ترسيخ حالة الارتباط بالإمام عجل الله فرجه؛ بوصفه حقيقة عقديّة لا بدّ من أن ترتسم في السلوك البشريّ اليوميّ، حتّى لا يضعف الإيمان ولا يفتر، ولا يخفت تعلّق البشريّة بوليّ أمرها وتستسلم للانحراف والإعراض.

فمهما تشتدّ المحن وتعظم الابتلاءات وتستفحل صور الانحراف والفساد، فإنّ الشخص المنتظِر لا يزداد إلا تعلّقًا واعتقادًا وانشدادًا إلى الإمام عجل الله فرجه الذي يكون وحده المخلِّص وعلى يده الفرج. فالنهاية هي حتمًا للصلاح والإصلاح في الأرض، وإنّ «من السنن الإلهيّة أنّ المراحل المتوسّطة من عهود وأزمنة الأمم دومًا يكون المتغلِّب فيها كفّة الظالمين والمفسدين، ولكنّ العقبى تكون للمصلح المنجي»[1].

فلا يخفى -إذًا- ما لفلسفة الانتظار من الأهمّيّة في بناء شخصيّة الإنسان، والدفع به نحو الأخذ بعوامل صناعة الذات وبناء الشخصيّة الإيجابيّة، التي تنحو بفكرها وبكلّ وجدانها نحو الصلاح المطلق، وتتوق نحو الكمال؛ لكي تكون مؤهّلة للتشرّف بالكون مع الإمام المنتظر عجل الله فرجه.

(1) السند البحرانيّ، محمد: الإمام المهدي عجل الله فرجه والظواهر القرآنيّة، تقديم وتحقيق: مركز الدراسات التخصّصيّة، ط1، النجف الأشرف، 1431هـ ق، ص121.

ولعلّ الطاقة الاستشرافيّة لمسألة ترقّب الظهور وتوقّع الفرج القريب، تكمن في تشكيل حالة من الاعتقاد الراسخ والواعي بحتميّة الفرج الموعود، وتعطي القناعة لصاحبها بأنّ التاريخ يتحرّك نحو هذه النقطة المضيئة في حياة البشريّة، وتتلخّص في المنقذ؛ وهو إمام للمخلوقين جميعًا، بعيد عن كلّ أشكال الطائفيّة أو العنصريّة أو الحزبيّة أو المذهبيّة الضيّقة، بل على العكس فهو إنسانيّ يساند جميع المحرومين في العالم، فالعمليّة لا تقتصر على أحياز ضيّقة ولا حتى على حيّز المؤمنين. والأمر يطال الكوكب برمّته ومن عليه؛ ليقود الثورة الإنسانيّة المنتظرة وينشر العدل والرحمة.

هذا الأمر من شأنه أن يكون أمرًا محرّكًا أَيَّما تحريك، للنفوس والهمم؛ لأنّ الفرد عندما يُحصّل تلكم الحالة الباطنيّة المعنويّة، التي تجعله يعتقد حقيقة قرب الظهور عملاً، ويعيش بصدق وإخلاص ممتثلًا لتوجيهات المقولة الاستشرافيّة للإمام الصادق عليه السلام: «توقَّع أمر صاحبك ليلك نهارك»[1]، فإنّه يشمّر عن سواعد العمل، وينتفض، وينفض عنه غبار الخمول والكسل، وينطلق في حيويّة ونشاط؛ لعلّه يكون في مستوى التشرّف باستقبال إمامه الموعود عجل الله فرجه وملاقاته.

ومن هنا، تتميّز المنظومة الفكريّة العقديّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بمحوريّة الظهور، وبحتميّة الاعتقاد أو الإيمان بمجيء الإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه؛ بوصفها عقيدة راسخة تستوجب الاستعداد المخلِص، والفعل المستمرّ؛ توطينًا وتهييئًا وإعدادًا معنويًّا ومادّيًّا، علنيًّا وخفيًّا، فرديًّا وجماعيًّا.

3. الاستشراف وإيجابيّة الانتظار:

عندما يؤمن الإنسان بأنّ الظهور قريب، ويتوقّع حصوله في أيّ وقت وحين؛ فهو -بلا شكّ- يعيش ممتلكًا أملًا أكبر في الحياة؛ لأنّه يرى أنّ طبيعة الوضع البالغة الغايةَ في الفساد والظلم -مع الإيمان بصحّة هذا الدين وأنّه الخاتم للأديان- تقتضي ظهور المصلح لإنقاذ العالم ممّا هو فيه.

(1) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: إبراهيم الميانجي؛ محمد الباقر البهبوديّ، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1403هـ ق/ 1983م، ج95، ص159.

فلا يمكن أن يعود الدين إلى قوّته، كما لا يمكن الخروج من متاهات البدع والتحريفات في صور التديّن والزيادات والنقص عبر ادّعاءات وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، لا يمكن تجاوزها وتخطّيها إلا إذا ظهر مصلح عظيم يجمع الكلمة «ويردّ عن الدين تحريف المبطلين، ويبطل ما ألصق به من البدع والضلالات بعناية ربّانيّة وبلطف إلهيّ، ليجعل منه شخصًا هاديًا مهديًّا، له هذه المنزلة العظمى والرياسة العامّة والقدرة الخارقة؛ ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا، بعدما ملئت ظلمًا وجورًا»[1]. وبخاصّة في ظلّ افتقاد الواقع الإسلاميّ، على امتداد ما يراه المسلم أمامه، قوّته وسيطرته الموعودة؛ بسبب اختلاف معتنقيه وتناحرهم واتّهام بعضهم لبعضهم الآخر، وتشتّت قوانينهم ودساتيرهم وأحكامهم وأفكارهم.

إنّ المستشرف للظهور وفق هذه الرؤية والمتوقّع لطلعة المنقذ في كلّ لحظة وحين، يكون ذا رصيد عالٍ من الشوق والحبّ من أجل اللقاء، حيث يترقّب باستمرار ويتوق نحو المعشوق، ويتحرّى شرف اللقاء، ويبحث عنه باستمرار؛ بلا كلل ولا ملل، ويمتلك أملًا لا ينضب ولا يتوانى، ويتّخذ ممّن ينتظر ظهوره ولقاءه قدوته، ومنه يستمدّ الطاقة والمقدرة والإرادة نحو الحركة والفعل في الحياة المعنويّة الدينيّة، وبداهة في الحياة الدنيويّة المادّيّة المعيشة، التي لا تنفصل عن الأخرى؛ بوصفها جزءًا منها، وطريقًا أو معبرًا إلى الحياة الأخرى.

والفرد أو المجتمع في حالة كهذه، يكون قلبًا وقالبًا وفكرًا ومراقبةً للنفس غير غافل أو متهاون ولو للحظة واحدة؛ لأنّه يؤمن بصدق وثقة ببشارة الوحي الاستشرافيّة أنّ أمر الإمام عليه السلام «لا يأتيكم إلا بغتة»[2]؛ ما يجعل الفرد في حالة يقظة مستمرّة، وفي ترقّب دائم للركب الذي يقوده الإمام المنتظر عليه السلام، يرنو إلى طلعته البهية لمصافحته والانخراط في صفوف جنده وخاصّته، وينال الحظوة بالانتساب والقبول ضمن أتباعه.

(1) المظفّر، محمد رضا: عقائد الإماميّة، ط9، بيروت، دار الصفوة، 1992م، ص111-112.
(2) المجلسيّ، بحار الأنوار، م. س، ج51، ص154.

وتبدو الأهمّيّة البالغة لهذا الاستشراف الوحيانيّ في ما يترتّب عنه من تحقّقات عمليّة فعليّة، تتمثّل في استشعار الفرد المسلم، المؤمن والمعتقد حقيقة بالظهور، والمنتظر للإمام المصلح، أنّه أبدًا «مكلَّف بالعمل بما أنزل من الأحكام الشرعيّة، واجب عليه السعي لمعرفتها على وجهها الصحيح بالطرق الموصلة إليها حقيقة، وواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما تمكّن من ذلك وبلغت إليه قدرته (**كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعِيته**). فلا يجوز له التأخّر عن واجباته لمجرّد انتظار المصلح المهديّ والمبشّر الهاديّ؛ فإنّ هذا لا يسقط تكليفًا، ولا يؤجّل عملًا، ولا يجعل الناس هملًا كالسوائم»[1].

وتأكيدًا لهذا الجانب الإيجابيّ لفلسفة الانتظار، وجدنا الأئمّة عليهم السلام يفضّلون ويثنون على المنتظِرين، بل ويجلّونهم أيّما إجلال؛ نظرًا إلى تميّزهم وفاعليّتهم وطاقاتهم الخلّاقة. فعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**إنّ أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته، والمنتظرين لظهوره أفضل أهل كلّ زمان؛ لأنّ الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة، ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف، أولئك المخلصون حقًّا، وشيعتنا صدقًا، والدعاة إلى دين الله سرًّا وجهرًا**»[2].

فهم يتحرّكون ويمضون في الحياة بطريقة، كأنّما صاحب الزمان بينهم، وكأنّهم يشاهدونه ويأتمرون بأوامره؛ لأنّهم يتحرَّون نيلَ رِضاه الشريف، فهم حقيقة أهل الدراية والعقل والمعرفة اليقينيّة التي تجعلهم أفضل أهل الأرض. وهذا من شأنه أن يكون كافيًا لبناء مجتمع إنسانيّ ربّانيّ، يسير في طريق التكامل المعنويّ، ويجاهد في سبيل بناء حضارة راقية، تعترف للإنسان بإنسانيّته وتكرّمه التكريم الذي ارتضاه الله تعالى له. وتلك بحقّ عين الإيجاب في فلسفة الانتظار الاستشرافيّ.

(1) المظفّر، عقائد الإماميّة، م. س، ص103-104.
(2) المجلسيّ، بحار الأنوار، م. س، ج52، ص122.

إنّ تعجيل حالة الظهور أمر يتطلّب مزيدًا من العمل ومضاعفة الجهد على جميع الأصعدة؛ من أجل إيجاد الأرضيّة المناسبة لنجاح حركة الإمام الموعود. فلا يعقل أن يقعد الفرد بلا فاعليّة أو تظلّ حركة المجتمع مشلولة وسلبيّة في انتظار تحسّن الوضع. فلا ينبغي أن نتردّد في الجزم بأنّنا ملزمون بكافّة التكاليف الشرعيّة: من طاعة الله، والجهاد في سبيله، وطلب العلم، والدعوة إلى دينه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في ذلك كلّه، وغير ذلك من الواجبات. فما يتوهّمه بعض البطّالين من أنّ ظهور المهديّ سيكون بداية عصر الاسترخاء والدعة والكسل باطل باطل؛ بل النصوص تشير إلى أنّه سيكون بداية للفتوح والجهاد والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ.

خاتمة:

إنّ المنظومة الفكريّة العقديّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، تتميّز عن غيرها من الفلسفات ومنظومات الفكر الأخرى، بوضعها الأسس الكبرى لأيّ رؤية استشرافيّة، من خلال التأصيل العمليّ للإمامة الشرعيّة، وجعلها أساس العقيدة وعنوان الامتثال والتسليم؛ بما يجعل منها قضيّة محوريّة في حياة الإنسان، وبما يجعل كلّ عمليّة نهضويّة أو حركة إصلاحيّة، أو تخطيط مستقبليّ لأيّ بناء حضاريّ مأمول، متوقّفًا عليها ومشروطًا بصحّتها.

لذلك جاءت السنّة النبويّة الشريفة -قوليّةً وفعليّةً، تصريحيّةً وتلميحيّةً- غنية بما يأخذ بالأعناق نحو ضرورة تولّي الأئمّة الشرعيّين بنحوٍ متلازم مع حتميّة التبرّي من غيرهم، والتماسًا للنجاة، وتحصيلًا للتكامل المعنويّ، الذي يُعدّ قطب رحى القضيّة. وهو الذي لا يتحقّق في صيغته المثلى؛ إلا بظهور الإمام الموعود عجل الله فرجه، وهو بدوره يشكّل باعثًا استشرافيًّا وجب أن يترقّبه ويتوجّه إليه الوعي والفكر والكيان البشريّ الوجوديّ بمجمله، بما يعنيه ذلك من حركيّة وإيجابيّة وفعّاليّة يحدوها الأمل والاستبشار.